كبسولة تاريخ الموحدين

عبد الحق الطاهري

مقدمة: الدولة الموحدية هي ثاني دولة مركزية حكمت الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، بعد دولة المرابطين. وقد مرت بثلاث مراحل: مرحلة النشأة، دامت 26 عاما من 515 إلى541هـ، ومرحلة الدولة، ودامت زهاء 127عاما، من 541 إلى 668هـ. وهذه الأخيرة انقسمت إلى عهدين: عهد القوة والازدهار، وعهد الضعف والانحلال، وتعتبر هزيمة معركة العقاب 609هـ/ 1212م، حدا فاصلا بين العهدين.(خط زمني).

و من أهم المراجع في تاريخ الموحدين: (صور لأغلفة بعض هذه الكتب)

- حركة الموحدين في القرنين 12 و13، لروجي لوترنو، 1982،

- حضارة الموحدين، لمحمد المنوني، 1989،

- الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، لعز الدين عمرو موسى، 1991،

- التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، لأمبروسيو هويثي ميراندا، 2004،

- الدولة والمجتمع في العصر الموحدي، للحسين أسكان، 2009.

ومن الأطروحات القيمة التي أنجزت حول الموحدين: أطروحة الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى،2000. وأطروحة محمد المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين، 2002. وباللغة الفرنسية

- Ghouirgate Mehdi, L'ordre almohade (1120- 1269) : Une nouvelle lecture anthropologique,2014

1- ابن تومرت وحركة الموحدين

انطلقت الحركة الموحدية بالمغرب مع مطلع ق 6هـ/12م بقيادة (محمد) المهدي بن تومرت، بعد عودته من رحلة قادته إلى الأندلس ثم المشرق الإسلامي، ومكنته من الإطلاع على مذاهب عقدية وفقهية وسياسية متنوعة والتأثر بها. ومن مميزات حركة الموحدين:

من الناحية المذهبية كانت عقيدة ابن تومرت توليفية، جمع عناصرها من مذاهب إسلامية مختلفة، بل متناقضة. ورغم غلبة الطابع الأشعري عليها فإنها حوت أفكارا خارجية وشيعية ومعتزلية. ومن الناحية الفقهية كلن ابن تومرت مالكيا، وإن وافق الظاهرية في بعض المسائل الأصولية.

ومن الناحية الاجتماعية اعتمد المهدي على عصبيته المصمودية لتكون عمود دعوته، ولتوفر له الجند اللازم لمواجهة خصومه المرابطين الصنهاجيين، وكانت الغالبية العظمى من أتباعه من المصامدة.

ومن الناحية السياسية شن المهدي حملة شعواء، قل نظيرها في التاريخ، على المرابطين ونمط حكمهم، لتشويه صورتهم واستمالة العامة إليه، فوصفهم بالاستبداد والاعتداء على الأنفس والأموال، وتحكيم النصارى في رقاب المسلمين. وحرض أتباعه على قتالهم.

ومن الناحية الاقتصادية: كانت قبائل الموحدين المصمودية مستقرة، تعتمد على الزراعة، عكس المرابطين الرعاة الرحل. و قد وعد ابن تومرت أتباعه بالرخاء الاقتصادي وبامتلاك الدنيا مغربها ومشرقها.

لقد استطاع ابن تومرت بحركته مواجهة دولة المرابطين القوية، لكنه توفي عام 524هـ دون أن ينجح في القضاء عليها وتأسيس دولته. وهذا ما عمل عليه خليفته عبد المومن.

2- تأسيس الدولة الموحدية وتوحيد الغرب الإسلامي في عهد عبد المومن بن علي

تسلم عبد المومن بن علي الكومي قيادة حركة الموحدين بعد موت المهدي، واحتاج ل 3سنوات لرص صفوفها لما أصابها من اضطراب. وبعدها انطلق في مواجهة القبائل المنشقة عنهم، كما خاض حروبا ضد المرابطين في مختلف جهات المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط. وبدخوله مراكش عام 541هـ كانت نهاية الدولة المرابطية وقيام دولة الموحدين. لكن الدولة الناشئة واجهت ثورات عدة: مرابطية وقبلية ومهدوية، استطاع عبد المومن إخمادها ومواصلة عمله التوحيدي للغرب الإسلامي، مستفيدا من التجربة الأم التي بدأها المرابطون. فأنهى ضم المغرب الأوسط بعد الانتصار على القبائل العربية في معركة سطيف عام 548هـ، ثم طرد النورمانديين من سواحل إفريقية عام 555هـ وأخضع المناطق الداخلية خاصة منطقة الجريد وطرابلس. وبذلك اتصلت حدود الدولة الموحدية من جهة الشرق بالدولة الفاطمية في مصر.(خريطة الدولة الموحدية في أقصى اتساعها)

وكان غرب الأندلس قد خضع للموحدين قبل دخولهم مراكش، لكن بعد إخضاع إفريقية تجهز عبد المومن لضم باقي بلاد الأندلس، لكنه توفي عام 558هـ ولم يحقق مراده، فواصل ابنه يوسف المسيرة بعد سنوات اقتضاها استتباب الأمر بالمغرب الأقصى. وبلغت الدولة أوجها مع يعقوب المنصور الذي كان له شرف الانتصار في معركة الأرك عام 591 هـ وفرض التوازن العسكري مع الإسبان، قبل أن تدخل الدولة في طور التراجع ابتداء من عهد محمد الناصر (شجرة ملوك الموحدين).

3- مذهب الموحدين بين المالكية والظاهرية

لم يكن ابن تومرت ظاهريا، ولم يثبت ذلك في حق عبد المومن ولا ابنه يوسف، رغم ما قيل من أن ذلك كان خفيا عندهما، وإنما نسب التمذهب بالظاهرية ليعقوب المنصور. وهو الذي كان يعتبر جميع الفقهاء عيالا على ابن حزم . ومع ذلك لا يمكن القطع بظاهرية المنصور. وإنما الثابت أن خلفاء الموحدين حاربوا فقه الفروع، وأن المنصور أمر بإحراق كتب المذهب بعد تجريدها مما فيها من القرآن والحديث، وعلى رأس هذه الكتب: مدونة سحنون وما جانسها. وأمر العلماء بالاقتصار على الرجوع إلى القرآن والحديث والاعتماد عليهما.

ورغم ذلك لم تؤد هذه الإجراءات إلى تهميش المذهب المالكي أو التقليص من مكانة فقهائه، ولم يتخل الفقهاء عن التأليف في فقه المذهب وتدريسه، والفتوى والقضاء بمقتضى أحكامه، ولم يتخل المغاربة عن حفظ مسائله. وقد وقف الفقهاء في وجه نزوعات السلطة الموحدية بشكل هادئ دون أن يثيروا غضبها، وبالمقابل حافظت لهم على مكانتهم، واعتمدت عليهم في التدريس والقضاء والفتوى والتوثيق والشورى. وبهذا صمد المذهب المالكي في محنته مع الموحدين وبقي محافظا على سيادته في المغرب والأندلس، واستمر الحال على ذلك في العصور اللاحقة.

4- العلوم والفلسفة والآداب والفنون في العصر الموحدي

وسع الموحدون دائرة الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون، فشملت المنقول والمعقول. واهتموا بالقرآن وعلومه من رسم وقراءات وتفسير. وازدهر علم الحديث بشكل لم يكن من قبل، وكانت لعلمائه الحظوة لدى الأمراء. كما استمر الاهتمام بعلم الفقه، وازدهر علما أصول الفقه وأصول الدين. كما حظيت بالاهتمام علوم اللسان من لغة ونحو وبلاغة وعروض، ناهيك عن علم التاريخ بفروعه: تاريخ الملوك والأمم والبلدان والسير والتراجم والأنساب. وتألقت الجغرافيا والخرائطية في هذا العصر مع الشريف الإدريسي. وازدهر أدب الرحلة فألفت فيه كتب كثيرة. (أغلفة كتب: المن بالإمامة، نظم الجمان، المقتبس من كتاب الأنساب، نزهة المشتاق...)

وفي الرياضيات تطور الحساب والجبر والهندسة، وكثر العدديون والمهندسون المعماريون والميكانكيون. وازدهر علم الفلك والتنجيم والتوقيت، والمنطق والجدل والمناظرة. واهتبل خلفاء الموحدين بالطب، وشجعوا على التأليف فيه وتدريسه، ونظموا مهنته، فكانت له صولة. واهتموا بطب العامة إلى جانب طب الخاصة، وبرزت في مراكش في عصرهم أسر طبية، مثل أسرة بني زهر.

وفي عصرهم نفقت علوم الفلسفة، خاصة في عهد يوسف بن عبد المومن الذي اشتغل بها بنفسه، وجمع كتبها وعلماءها إليه، وعلى رأسهم ابن طفيل. وبفضل هذا الاهتمام والتشجيع نبغ ابن رشد الحفيد وترجم كتب أرسطو، حتى قال رينان: "لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو". هذا مع بعض التضييق الذي تعرض له الفلاسفة في هذا العصر، خصوصا مع المنصور والمأمون. (صورة أغلفة كتب: فصل المقال، الضروري في المنطق، ما بعد الطبيعة).

وفيه نشطت الحركة الأدبية وبرز أدباء كبار في الشعر والنثر والخطابة، وصار الأدب موسوما بالإجادة والتفنن والإبداع في أغراضه وأساليبه. وعرفت الفنون ارتقاء كبيرا، وشمل ذلك العمارة والموسيقى والخط. وتفنن الموحدون في بعض الصناعات كصناعة السفن والسلاح والوراقة والسكة.

5- نماذج من المعمار الموحدي

اهتم الموحدون بالعمران والعمارة، وحرصوا على تخليد مآثرهم. فوسعوا بعض المدن كمراكش، وزودوا بعضها بالمياه عبر قنوات مثل مكناس، وجددوا أخرى كقرطبة، وبنوا مدنا جديدة مثل رباط الفتح ورباط تازا والقصر الكبير. وأنشأوا القصور في مراكش والرباط وغرناطة ومالقة. وكانوا السباقين إلى تأسيس المدارس بسبتة وفاس ومراكش، وإفريقية والأندلس. وبنوا المستشفيات في سلا والقصر الكبير، وكان أبرزها وأضخمها بيمارستان "دار الفرج" في مراكش، الذي تحكي المصادر تفاصيله. واهتموا بالعمارة العسكرية فشيدوا القصبات والحصون والأسوار. وأنفقوا على ذلك من المال العام والخاص، كما فعل المنصور لما بنى سور إشبيلية من ماله الخاص بعدما هدمه السيل العظيم.

وتتميز العمارة الموحدية بالعظمة والجمال والمتانة والبساطة، وبتداخل المؤثرات المغربية والأندلسية. ويظهر ذلك في مساجدهم الخالدة: مثل مسجد تينمل بصومعته دقيقة الأبعاد، وبمحرابه ومنبره العجيبين، ومنارة الكتبيين البديعة بمراكش، وشبيهتاها صومعتا حسان بالرباط والخيرالدا بإشبيلية. وهذه الثلاثة توصف بالشقيقات، فرغم

اختلاف حجمها وارتفاعها، فهي متشابهة في هيكلها وزخرفتها المعتمدة على الكتابة الكوفية والأشكال الهندسية كالأقواس، أو الرسوم التي تحاكي الزهور والنخيل والصدف، وهي مصنفة اليوم ضمن التراث العالمي.(لوحة تركيبية تجمع هذه المساجد)

خاتمة: انقسام الإرث السياسي الموحدي إلى ثلاث كيانات (خريطة التجزئة السياسية بعد الدولة الموحدية)

لقد استطاعت الدولة الموحدية أن تكون قوة دولية في العصر الوسيط، وحكمت مجالا جغرافيا لم تحكمه دولة قبلها ولا بعدها. لكن منذ هزيمة العقاب دب الضعف إليها وتوالى على حكمها خلفاء أغلبهم ضعاف. وهو ما قوى الأطماع الداخلية والخارجية فيها، وانقسم إرثها بين ثلاثة كيانات:

ففي إفريقية أدت سياسة المأمون وتخليه عن تعاليم المهدي، إلى تذمر شيوخ الموحدين، واستبداد الولاة الحفصيين بحكم البلاد، وإعلان استقلالهم منذ 627هـ مع أبي زكرياء الحفصي.

وفي تلمسان استطاع يغمراسن الزياني أن يحصل من الموحدين على الاعتراف باستقلاله بالمنطقة، فأسس دولة بني عبد الواد (بني زيان) منذ 633هـ. وقد حاول الخليفة السعيد استرجاع تلمسان وإفريقية لكنه توفي دون أن يحقق مراده. وبانفصال إفريقية وتلمسان فقدت الدولة الموحدية جزءا كبيرا من مجالها ومواردها البشرية والمالية.

وفي المغرب الأقصى تطورت الحركة المرينية إلى إمارة بفاس سنة 646هـ، واستفادت من الثورات التي اندلعت في مناطق مختلفة من البلاد. فتمكن المرينيون من دخول مراكش سنة 668هـ والقضاء على دولة الموحدين.

أما في الأندلس فقد اشتد الخطر المسيحي واستمر اقتطاع أجزاء منها لصالح قشتالة وأراغون.